

مُتَلَمَّة

جرت عادة الدارسين على تداول عدد من أسماء الرواد الأوائل الذين رادوا حركة الاتصال بأوروبا في القرن الماضي - التاسع عشر - على أنهم شاركوا في حركة «المقارنة» بين الأديين العربيّ والأوربيّ ، أو بين الأدب بعامة . إذ يُذكر رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك ، وأديب إسحاق ، ونجيب الحدّاد ، وروحي الخالدي ، وسليمان البستانيّ - لكن قليلاً من الدراسات هي التي توقفت عند إنتاج واحد من هؤلاء أو أكثر لتبيّن للناس الدور الحقيقي لهذا الرائد أو ذاك في هذا المجال الذي بين أيدينا ؛ الأدب المقارن ، أو - إذا شئنا الدقّة - قلنا : « المقابلة » بين الأدب أو «المقارنة» بينها^(١) .

ولعلّ أقدم من تعرّضت له دراساتها الأدبية نجيب الحدّاد « مقابلة بين الشعر العربيّ والشعر الإفريقيّ » (١٨٩٧ م) . فقد ذكره عند الحميّ دياب في : التراث النقديّ قبل مدرسة الجيل الجديد « (١٩٦٨ م) ، ثم عبد العزيز الدسوقي في : « تطوّر النقد العربيّ الحديث في مصر » (١٩٧٧ م) . وهي وقفات تركّز على الجانب النقديّ من « مقابلة » الحدّاد .

وحظي روعي الخالديّ بنصيب وافر من الدراسات ؛ حيث أفرد له ناصر الدين الأسد محاضراته في معهد الدراسات العربية بالقاهرة عام ١٩٧٠ ، وجعل عنوانها : «محمد روعي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين» . وفي هذا الكتاب خصّص الأسد الفصل الرابع لكتاب الخالديّ « تاريخ علم الأدب بين الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو » (١٩٠٤) ، وقد وقف الففرتين : ثانيا وثالثا من الفصل لمقارنات الخالدي (ص ٧٨ - ٨٦) . كما أفرد هاشم ياغي - في محاضراته بالمعهد نفسه (١٩٧٣) والتي كان عنوانها : « حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين » - الفصل

(١) سيميز البحث بين المصطلحين : المقابلة والمقارنة بمعنى خاص لكلّ منهما ، على الرغم من شيوعهما معا

في الكتابات الأولى وتبادلها لمكانيهما .

الثالث كله تقريباً للكتاب نفسه ، مركزاً على تعداد الملاحظات التي لاحظها الدارسون على الكتاب (ص ٣٨ - ص ٤٣) .

ثم نشر حسام الخطيب الكتاب نفسه عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين في دمشق (١٩٨٤ م) مقدماً له بدراسة كان قد قدمها إلى « ملتقى الأدب العربيّ المقارن » بجامعة عنابة بالجزائر (١٩٨٤ م) ، مركزاً فيها على ريادة الخالديّ للأدب العربيّ المقارن . ثمّ قدّم محمد برّادة بحثاً عن الخالديّ في ندوة النادي الأدبيّ بجدة (١٩٨٨ م) التي كان عنوانها : «قراءة جديدة لتراثنا النقديّ» ، غلب عليها تناول النقديّ ، وفحص موقف الخالديّ من المصطلحات والمدارس النقدية في عصره .

ولم أجد من الروّاد من حظى بما حظى به الخالديّ من دراسة واهتمام إلاّ سليمان البستانيّ ، مترجم « الإلياذة » ، والذي قدّم لها تقديماً مستفيضاً (١٩٠٤) . ومن هذه الدراسات - على سبيل المثال - دراسة منيف موسى عن : « سليمان البستانيّ في حياته وفكره وأدبه » (١٩٨٤) ، والتي خصّص ما يقرب من نصفها لـ « سليمان البستانيّ معرّب الإلياذة » (ص ٦٥ - ص ١٢٤) .

في حين اكتفى أحمد محمد البدويّ - في دراسته « أوتار شرقية في القيثارة الغربيّ » (١٩٨٩) - بالإشارة إلى كتابات يعقوب صرّوف وعبد الرحيم أحمد والخالديّ والبستانيّ ، في معرض مناقشته لطف حسين وبنت الشاطئ .

لايعنى هذا - بطبيعة الحال - أن الروّاد الآخرين الذين تعرّضنا لكتاباتهم لم يحظوا بهذا الاهتمام - مثله أو قريب منه - لكنني أعنى أن هذا الجانب من كتاباتهم - سواء كتابتهم النقدية أو المتصلة بـ « المقارنة » بين الآداب هو الذي لم يتوقّف عنده الدارسون كثيراً ، ليرسموا معالم إسهاماتهم واجتهاداتهم في هذا الجانب .

من هنا ، جاء توجهي إلى هذا الموضوع : متابعة إسهامات الروّاد جميعاً في هذا المجال - مجال « المقارنة » و « المقابلة » بين الآداب ، بدءاً من الرائد الأوّل رفاة الطهطاويّ في كتابه الرائد - كذلك - « تخلص الإبريز في تلخيص بارير » (١٨٣١م) ، وانتهاءً بالمقدمة الطويلة التي كتبها سليمان البستانيّ لترجمته لإلياذة هو ميروس

(١٩٠٤م) ، مروراً بعلى مبارك وأديب إسحق ويعقوب صرّوف وبجيب الحدّاد

وروحى الخالدي^(١)؛ لتجتمع جهودهم جميعاً من هذا المجال - ربّما للمرّة الأولى ا - في دراسة واحدة ، هي هذه الدراسة .

ولقد لاحظت الدراسة أن المصطلحين الشائعين في الكتابات التي تعرضت لها ، هما مصطلحا: المقابلة - في الغالب - والمقارنة ، أحياناً - بل لانعدم أن نجد - كما سنرى - أن مصطلح «الموازنة» يستخدم أيضاً ، وإن كان على ندرّة . ولهذا آثرت الدراسة أن تميّز بين المصطلحين الأوّلين -المقابلة والمقارنة - كما ميّز الدارسون بين مصطلحي «المقارنة» و «الموازنة» . فمن المتعارف عليه أن «الموازنة» لا تستخدم إلا حين يكون النصّان المقابل بينهما في لغة واحدة ، وأما «المقارنة» فتكون بين نصّين - أو نصوص - من لغتين مختلفتين - أو لغات مختلفة . وبناء عليه فقد زادت الدراسة المصطلحات تخصّيصاً ؛ ففي الكتابات التي تعرّضت الدراسة لها ، سلاحظ مستويين :

الأوّل هو مستوى « المقابلة » العامة ، التي تبحث عن « الأفكار » أو «الأساليب» المتفقة أو المختلفة بين أدبين أو أكثر ، دون الالتفات إلى قضية تأثير أحد الأدبين في الآخر ، أو سابقهما في اللاحق . وآثر البحث أن يخصّ هذه الكتابات بمصطلح « المقابلة » وحده .

والثاني هو مستوى التناول التاريخي ، الذي ينصّ - في وضوح وصراحة - على تأثير أحد الأدبين في الآخر ، وقد يقف عند عوامل هذا التأثير - في الزمان والمكان والظروف التاريخية المختلفة - وحدوده ، ثم نتائجه - وطبيعي أن يطلق البحث على هذا المستوى اسم « المقارنة » ، من حيث كان هذا المستوى التاريخي - وما يزال - مناط اهتمام المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، وهي رائدة في هذا المجال ، من جهة ، والمؤثرة الأولى على الكتابات العربية الأولى في هذا المجال ، من جهة أخرى .

من هنا جاء تقسيم البحث - بعد مدخل قصير في الأدب المقارن : تاريخه ومفاهيمه - إلى ثلاثة أقسام ؛ يتناول الأول منها : البداية ، كتابات كلّ من رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك . في حين يتناول القسم الثاني : مقابلات ، كتابات كلّ من يعقوب

(١) على الرغم من صدور ترجمة البستاني للإلياذة وكتاب الخالدي في عام واحد (١٩٠٤) وعن دار واحدة

(الهلل بالقاهرة) ، فقد صدر كتاب الخالدي قبل ترجمة البستاني بشهور .

صروف ونجيب الحدّاد وسليمان البستانيّ . ثم يتناول القسم الثالث والأخير :
مقارنتان ، كتابات كلّ من أديب إسحق وروحي الخالدي .

وسوف نلاحظ أنه يختلط في كتابات كلّ من الطهطاوي ومبارك والخالدي
«المقابلة» و«المقارنة» معاً ؛ ولهذا أفرد البحث لكتابات الطهطاوي ومبارك قسماً
خاصّاً ، وأدخل كتاب الخالديّ في القسم الثالث لغلبة المقارنة عليه .

ولاتدعى هذه الدراسة الإحاطة بما كتب في هذا المجال كلّهُ ؛ فربّما فاتها بعض ما
طوته الدوريات القديمة بمخاصة ، والتي كانت مصدراً لبعض مادة هذه الدراسة ، بمخاصة
كتابات يعقوب صروف التي نشرها في مجلّته «المقتطف» ، مع محاولاتي الدائبة -
يشهد الله - في أن أضع يدي على كلّ ما كُتِبَ ونُشِرَ في هذا الموضوع . ولا أذكر
مالقيته من عنت في الحصول على كثير من هذه المادة ، سواء المنشورة في كتب أو
تلك المنشورة في دوريات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ؛ فهذا «بعض»
مما اعتاده الباحثون في عالمنا العربيّ !

وبعد ،

فهذا جهد المُقلِّ ؛ إن أصاب ، فله الحمد والمِنَّة ، ومنه - وحده - التوفيق ، وإن
أخطأ فحسبه أن صاحبه بذله - بقدر طاقته ، ودون كلل أو ملل - مخلصاً وأميناً .
والله - وحده - من وراء القصد .

المؤلف